البـــــلاغة وعلم النفس

للأستاذ على العمارى

لعل علوم البلاغة أقل علوم العربية نصيباً من جهود الباحثين المعاصرين ،ولعلها كذلك أحوج هذه العلوم إلى التجديد والتهذيب ولكننا نستطيع أن نقول — فى غير غض من عمل أحد — : إن الأبحاث التى طالعنا بها هذا العصر فى هذه العلوم دون ما كنا نأمل من علمائه الأعلام

ولقد شاع فى رسائل المعاصرين النعى على علماء البلاغة ، ورميهم بالجهل والتقصير أحياناً ، وهذه طريق لا تؤدى إلى الغاية. ولو أنهم إذ هدموا بنوا لكان الأمل قويا فى أن نظفر بشىء . ومن حق أسلافنا علينا أن نذود عنهم ، وندفع مايلحق بهم من ظلم وجحود .

قرأت رسالة صغيرة للأستاذ الشيخ (أمين الخولى) المدرس بجامعة فؤاد الأول عنوانها (البلاغة وعلم النفس) . تحدث فيها عن صلة قديمة بين الأبحاث البلاغية ومظاهر النفس الإنسانية ، ولكنه نعى على الأسلاف أنهم لم يربطوا بينهما على أن علم النفس علم من العلوم (مع أنه كان من معارفهم) ورأى أن هذا الربط فى الدرس وفى غير الدرس ضرورى ، بل هو ضرورى لفهم إعجاز القرآن وتفسيره حيث يقول (فالنظر الصائب إليه — يعنى القرآن — والفهم الصحيح له ، أو بعبارة أكثر صراحة تفسيره لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ، ونواميس روحية ، فليس يصح أن نعلل عبارة من عباراته ، أو يحتج للفظ فى آية من آياته ، أو يستشهد لأسلوب من أساليبه إلا بموقعه كله فى النفس ، وبما كشف العلم عن هذا الموقع ، وما سبر من أغواره فبالأمور النفسية لا غير (كذا) يعلل إيجازه وأطنابه ، وتوكيده وإشارته ، وإجماله وتفصيله ، وتكراره وإطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسباته ، وماقام من تعليل هذه الأشياء وغيرها (كذا أيضاً) على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتمحل أو هو أشبه شىء به)

ونحن إذا طرحنا جانبا مناقضة الأستاذ لنفسه بين محاولته تعليل إعجاز القرآن ، وبين إصراره على أن خير الآراء فى الإعجاز هو رأى السكاكى وجملته أن الإعجاز لا يعلل . إذا طرحنا هذا وجدنا الأستاذ انساق وراء الفكرة التى سيطرت على قلمه ، ولكننا مع ذلك ننتظر حتى نرى مبلغ صدق هذا من الأبحاث التى وعد بها الكاتب وقد مر عليه دهر ولم يطالبنا بها وإن كنا نجزم بأن دعواه أن كل تعليل لأسلوب القرآن لا يقوم على أساس نفسى ادعاء وتمحل نجزم بأن هذه مبالغة لا تمت إلى الصواب بصلة .

ونترك هذه الدعاوى وأمثالها إلى حين يؤيدها بأمثلة لنرد على هذين المثالين الوحيدين اللذين اعتمد عليهما فى رسالته ، وادعى فيهما أن القدامى وقفوا عند تعليلات جافة ركيكة ، ولم ينظروا فيهما إلى الأمر النفسى قط . وسنرى أن ما وصمهم به ليس صحيحا ، وأن ما ذكر أنه وصل إليه هو هو الذى ذكره علماؤنا الأجلاء قال : (نحن نقرأ مثلا فى بيان ميزه الأسلوب المعروف عندهم باسم تأكيد المدح بما يشبه الذم قولهم : إن سبب ذلك أن هذا الأسلوب كدعوى الشىء ببينة ، ويفسرون ذلك بأن القائل علق نقيض المدعى وهو إثبات شىء من العيب بالمحال، والمعلق بالمحال محال ، فعدم العيب محقق . كما نقرأ لهم وجهاً آخر لميزة هذا الأسلوب هو : أن الأصل فى مطلق الاستثناء الاتصال فذكر أداته قبل ذكر المستثنى منه يوهم إخراج شىء مما قبلها فإذا ما أوليت الأداة صفة مدح وتحول الاستثناء من الاتصال إلى الانقطاع جاء التأكيد لما فيه من المدح على المدح والأشعار بأنه لم يجد صفة ذم يستثنيها

ولعل السر النفسى لذلك فيما يظهر هو مافى هذا الأسلوب من معنى المباغتة والمفاجأة التى تكسبه طرافة وتثير حوله تنبهاً »

والذى نلاحظه هنا أمور : —

(١) أن التعليل الأول أحد تعليلات لهم ويمكن إرجاعه إلى أمر نفسى ، بل هو فى الحقيقة من أخص أمور النفس ، فهو فكر مرتب ، ومنطق محكم ، وليس شيئا ماردده به من أنه يترتب عليه أن عبارة التوثيقات المؤكدة ولغة الإشهادات المسهبة هى الفصحى وأظن أن الفرق بين الاثنين واضح ، والمغالطة بينهما أوضح

(٢) أن المفاجأة التي تمدح بأنه وصل إليها إنما مأتاها انقطاع الاستثناء وذلك أن النفس حين تسمع أول الكلام تنتظر أن أن يجيء آخره أليفا لأوله ويستقر فيها اطمئنان لذلك فإذا انقطع الاستثناء فوجئت بما لا تتوقعه .

(٣) أنهم ذكروا لهذا علة نفسية ؛ قال في الطول بعد أن ذكر التعليلين السابقين « مع ما فيه من الخلابة وتأخيذ للقلوب » وفي هذه الكلمة الأخيرة (تأخيذ للقلوب) كل الرد على الباحث الفاضل المجدد !!

أما المثال الثاني حيث يقول « ومن ذلك مثلا أنا نسمعهم يقولون أطبق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أبلغ من التصريح بالتشبيه ... الخ ثم لا يعللون شيئاً من ذلك كله إلا بالفكرة السابقة من تأكيد المدح بما يشبه الذم من قولهم . أنه كدعوى الشيء ببينة » . ولعلنا نقف طويلا متعجبين من جراءة أستاذ في الجامعة ، ورئيس طائفة تدعي التجديد في علوم البلاغة ، حين نعلم أن صاحب الصناعتين عقد فصلا للموازنة بين الحقيقة والمجاز ذكر فيه أكثر من أربعين مثلا وعلل لكل مثال بعلة ، وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم واحداً من هذه العلل ، وأنه في أول الفصل علل تعليلا عاما يأمر نفسي فقال لا وفضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في النفس نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة » فكيف يسوغ بعد هذا لأستاذ أمين في العلم أن يطرح هذا كله ليقول إن علماءنا لم يعرفوا تعليلا نفسيا واحداً ؟ وهل يرى أن الباحث لا يكون بارعا معلاما إلا إذا ادعى أن الأوائل لم يتنبهوا لما وصل إليه ؟

ولعلي أقضي على كل ادعاء إذا ذكرت كلمتين اثنتين تشهدان بأن علماء البلاغة لم يقتصروا على تعليلات ركيكة جافة ، وإنما وصلوا في بعض الأحايين إلى اللباب المنتخب

(١) كتب ناشر كتاب أسرار البلاغة في مقدمته قال : « ينبغي لقارىء هذا الكتاب وصنوه دلائل الإعجاز أن يتأمل حق التأمل ما انفرد به الإمام عبد القاهر من جعله علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع — من قبيل العلوم الطبيعية كعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الفلسفة العقلية — لامجرد مواصفات واصطلاحات — فإنه يقيم الدلائل ، ويسوق الحجج على كون البليغ من الكلام باشتماله على التشبيه والتمثيل والمجاز العقلي أو اللغوي من قواعد البيان ، أو بمراعاة نكت المعاني في التعريف والتنكير والحصر والتأكيد والفصل والوصل وغير ذلك إنما كان بليغاً لأمور حقيقية في عقول الناس وشعورهم وتأثير الكلام في أنفسهم »

وهذا كلام صريح في أن علماءنا تنبهوا لهذا الذي أراد الأستاذ أن ينبههنا إليه ، بل جعلوه أصلا تؤلف على ضوئه الكتب

(٢) قال الشيخ عبد القاهر يعلل بأمر نفسي هذا الأمر الذي ادعى الأستاذ أنهم لم يذكروا له تعليلا نفسيا « وإن أردت اعتبار ذلك — يعني تأثير التمثيل في النفس — في الفن الذي هو أكرم وأشرف (يقصد فن الوعظ) فقارن بين أن تقول : إن الذي يعظ ولا يتعظ يضر بنفسه من حيث ينفع غيره . وتقتصر عليه وبين أن تذكر المثل على ما جاء في الخبر من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : مثل الذي يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج الذي يضيء للناس ويحرق نفسه ... الخ

« فأما القول في العلة والسبب ، ولم كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه وما الذي أوجبه واقتضاه فغيرها »

« وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضي أن يضخم المعنى بالتمثيل وينبل ، ويشرف ويكرم ، فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي ، وتأتيها بصريح بعد مكنى ، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ، وثقتها به في المعرفة أحكم ، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس ، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، لأنه العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام ، كما قالوا « ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين » فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعني الأنس من جهة الاستحكام والقوة . وضرب آخر وهو ما يوجبه تقدم الإلف كما قيل ما الحب إلا للحبيب الأول .

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ، ثم من جهة النظر والروية ، فهو إذن أمس بها ورحما ،